

من المعجم الإعلامي العربي لطوفان الأقصى (مقاربة سوسiolسانية)
Arabic Media Dictionary of the Al-Aqsa Flood (A Sociolinguistic Approach)

د. أسماء حميدة¹

hamaidia.asma@univ-guelma.dz

تاريخ النشر: 2026/03/15

Received: 27/09/2025

تاريخ الاستلام: 2025/09/27

published: 15/03/2026

ملخص:

يستطيع الناظر في الحدث الإعلامي المصاحب لطوفان الأقصى اكتشاف حرب لغوية موازية له ذات معجم خاص، تأتي مما ابتدعه الإعلاميون أنفسهم من مواد لغوية لإدارة الحرب، فضلا عما اصطنته الجبهتان المتصارعتان من مصطلحات وتعبيرات ضمن خطاباتها المكشوفة. لذا حاولت هذه الورقة البحثية استرفادا بالمنهج السوسiolساني أن تستشف منها ما أمكن من طروحات اجتماعية كفيلة بتفسير الرؤى الإيديولوجية المغذية للصراع، وقد أبانت عن إمكانات هذا المعجم في ممارسة حرب نفسية إذكاء لنظيرتها الميدانية، بالاستناد إلى ما يناسبها من مرجعيات تدفع إلى بناء تصورات محدّدة لتقويض الآخر من جهة ودعم الرواية الخاصة من جهة أخرى.

كلمات مفتاحية: الإعلام السياسي، طوفان الأقصى، سلطة اللغة، معجم الحرب.

Abstract:

Anyone who looks at the media event accompanying the Al-Aqsa Flood can discover a parallel linguistic war with a special lexicon, which comes from the linguistic materials created by the media professionals themselves to manage the war, in addition to the terms and expressions created by the two conflicting fronts within their exposed speeches. Therefore, this research paper, taking advantage of the sociolinguistic approach, attempted to deduce from it as many social propositions as possible capable of explaining the ideological visions that fuel the conflict. It demonstrated the potential of this dictionary to practice psychological warfare to incite its field counterpart, based on appropriate references that push for the construction of specific perceptions to undermine the other on the one hand and support the particular narrative on the other.

Keywords: Political media, Al-Aqsa flood, language authority, war dictionary.

مقدمة:

لا يُحمل الخبر اعتباطاً إعلامياً، بل يتطلب صناعة لغوية مشدودة بإحكام إلى طبيعة الأحداث والوقائع، ابتغاء تسليم معلومات تتراوح بين الجاهزية والمجازية، معتضدة بطاقة الكلمات في المنح والمنع والتعيين والتضمين، وهي حقائق لا طاقة على إنكارها في الإعلام السياسي، لاسيما إن تعلّق الأمر بقضايا هوياتية، وفي الصراع المشهود اليوم بين الكيان الصهيوني وفلسطين ما لا يحتاج إلى بيان. فعلى غرار الحرب العسكرية نشأت حرب إعلامية موازية، تقابل فيها الكلمة كلّ أنواع السلاح، مشفوعة بحرب رقمية مسخرة لتكريس الاضطهاد، وليس أدلّ عليه من ممارسة الحظر المفتوحة عبر مختلف وسائط السوشل ميديا لكلّ مناهض لجرائم الاحتلال، مع واجب الإشادة بالجهود التقنية العربية في ابتكار أساليب تخدع اللغة الخوارزمية حفاظاً على حملات النصرة الرقمية؛ باعتبار الإعلام الرقمي اليوم هو مدار التنافس الشديد بين الدول الكبرى؛ بناء على سعة مساحته وسرعة انتشاره وبلغ أثره، إنّه دليل قاطع على قوّة الكلمة في تغيير القنوات وتوجيه الآراء بل أدلجة العالم، وإنّ منها أيضاً يتخلّق الأمل في صفوف المقاومة رغم عمق الألم، ومنها يستمدّ الشعب الأبي صبره وتصبره، وبها يحاول الآخر -عبثاً- أن يزيده نكالا على نكال.

والمتنبّع للحدث الإعلامي المرافق لمجريات الحرب الفلسطينية الإسرائيلية يلحظ وجود معجم إعلامي خاص لا نكاد نجد له مقابلاً مثلاً في الحرب الروسية الأوكرانية رغم التزامن النسبي بينهما، وهذا كفيلاً بطرح انشغالات بحثية كثيرة بدءاً بأسباب الاختلاف مروراً بحيثياته وانتهاءً بغاياته. ونحن هنا لا نرغب في التوقف عند حدود ما يبتدعه الإعلاميون أنفسهم بل نتجاوزه إلى ما يصنع من موادّ لغوية ضمن خطابات طرفي الصراع المكشوفة فيتمّ تدويرها إعلامياً للتحقق لزاماً بهذا المعجم، وهو ليس من طبيعة الألفاظ المفردة فحسب بل ننسب إليه المقولات التي حولتها المقامات إلى بنيات معجمية مخصصة، نحاول أن نستشفّ منها ما أمكن من طروحات اجتماعية كفيّة بتفسير علاقة الأنا بالآخر والعالم من حولها، باسترفاد المنهج السوسيولوجي وانطلاقاً من إشكال رئيس مفاده: علام يشتغل المعجم الإعلامي العربي لطوفان الأقصى؟ وتتفرّع منه حتماً تساؤلات من قبيل: فيمّ تبدّى خصوصيّة هذا المعجم؟ ما مرجعيّاته البنوية؟ كيف يُسهّم هذا المعجم في بناء ودعم التّصورات الذهنية عن طرفي الصراع والعالم من حولهما؟ هل يخدم معجم طوفان الأقصى العربي القضية الفلسطينية على مستوى الرأي -العالمي- العام؟ وإنا لا نزعّم من هذا الطّرح استيفاء كلّ اللّكسيمات الإعلامية العربية التي تخلّقت إثر حرب السابع من أكتوبر؛ فهذا يصير البحث إلى حجم غير أكاديمي من جهة، فضلاً على أنّها متجدّدة بتجدّد الأحداث والخطابات، ممّا يجعلها متمنّعة عن الحصر، ولهذا لم تتجاوز ما شاع استعماله في القناة الإعلامية العربية الشهيرة: (الجزيرة) التي لا يُجحد حظّها من المتابعة المستمرة على الصعيد المحلي والعربي والعالمي، ثمّ إنّ مدوّنات البحث المستقاة منها متخيّرة ضمن إطار زمنيّ محدود بين أكتوبر: 2023 و2024.

في الإعلام السياسي

من اللامغالاة اعتبارُ مصطلح الإعلام اليوم مرادفاً موضوعياً للسياسة، فما إنّ يُلفظ حتّى تتبادر إلى الأذهان متعلّقات السياسة لاسيما في ظلّ ما تشهده من سيولة غير مسبوقّة تدعمها التّقانة المتسارعة، إنّه عصب كلّ وسيلة إعلامية ما دام من غير الممكن جحدُ مركزية السياسة في السّاحة المحليّة والدّوليّة، إذ لا يمكن تصوّر إعلام من دون أجندة سياسية يبحث لها عن التّمكن، ولا تصوّر تكتّل سياسيّ من غير إعلام يفرض إيديولوجيته. ولهذا تتفق الأذهان على أنّ الإعلام السياسي عبارة عن جهود واعية لكيانات سياسية بهدف تشكيل الرّأي العامّ وإعادة صياغته بما يتناسب وقناعاتها، إنّه وحده المسؤول عن توطيد نظام أو تغييره بعد تزويد الجمهور بأكبر قدر ممكن

من المضامين ذات الصبغة السياسية حول موضوع مثير للجدل. والمفاد من هذا أنه لم يعد يشتغل في حدود إطاره الموضوعي المرتبط بالتثقيف السياسي والتنوير الإعلامي من خلال تبصير القائد والمقود بما لهما وما عليهما، تعزيزا لقيم المواطنة وترسيخا لمبادئ الوطنية، لقد تحول إلى سلعة مستباحة لأصحاب المال والتفوذ، جرّته من صفة الحياد حتى بات وسيلة فعالة في خلق أو تثبيت أو تحييد أو تحييز اتجاهات الجماهير، وبناء على تصاعد سلطته في صنع القرار الدولي اعتُبر على سبيل المجاز العضو السادسة عشر في مجلس الأمن الدولي.

والإعلام بهذا المنطق قادر على تدمير الوعي الجمعي بتزييف الحقائق والتلاعب بأولويات المتابعة الإعلامية عبر استراتيجية المنع بواسطة العرض؛ أي صرف الأنظار إلى الهامش على حساب المركز، وهذا ما يولّد الحاجة الدائمة إلى الاستذهان من أجل تفكيك وتمحيص المغالطات الإعلامية، التي كثيرا ما تجد في النظريات الإعلامية أسنادها الملائمة لسياستها التحريرية، وبهذا تصبح معرفتها ضرورة لكل متلق جاد ليحسن التمييز بين الخبر النمطي وغير النمطي، وأبرزها اشتغالا نظرية السلطة، ولعل في اسمها كفاية الإشارة إلى أنّ الشعب غير جدير بتحمل المسؤولية، ما يحول للدولة السيطرة المطلقة تحقيقا للمصلحة الوطنية، وتعتبر تجربة هتلر أحسن مثال لها، حتى إنّ من مآثراته أنّ الدعاية الذكية كفيلة بجعل الناس ترى الجنة جحيما أو الشقاء نعيما، ولا يخفى طبعاً أنّ اللغة هنا أول المعاول عملا، فمن يمتلك مقاليدها قادر على صناعة الفرق وتحقيق غاياته ولو اشتدت بُعدا عما ينبغي له الإنسانية.

سلطة اللغة ولغة السلطة

ما بين هذين التركيبين تستوي مقولة هايدغر: اللغة أخطر النعم، فعلى قدر ما تترجم الفكر تزيّفه، وعلى قدر ما تجلّ الرأى تقبّحه، إنّها عظيمة السلطة حين تجر المتلاقي على الامتثال لأحكامها المعلومة، ومجرد التمرد عليها يصير الكلام لغوا لا يمكن الاعتداد به، بدليل أنّ الواحد ممّا إذا "أخطأ في نطق كلمة ما أو استخدمها في غير ما وُضعت له، أو عادى قواعد لغته كان حديثه موضع سخريّة، بل يُرمى بالغفلة والجهل، وإذا حاول أن يخرج كلّ الخروج عن النظام اللغوي بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها، أصبح عمله هذا ضربا من العبث العقيم." (واي، 1983، صفحة 5) وهذا ما دفع رولان بارث Roland Barths إلى حصر سلطة اللغة في وجهين: الإثبات والتكرار، حيث تتيح اللغة جزءا من الأفكار ممّا يتساق ووضوابطها وتمنع جزءا آخر فيظل غير مثبت، وبتكرار تسنيناتها رعيلا بعد آخر ترسخ سلطتها، يقول: "أنا مرغم دوما على الاختيار بين صيغة التذكير والتأنيث، وليس بإمكانني على الإطلاق أن أحيّد عنهما معا أو أجمع بينهما، ثم إنّني مُرغم على تحديد علاقتي بالآخر، إمّا باستعمال ضمير المخاطب بصيغة المفرد أنت أو بصيغة الجمع أنتم، وليس بإمكانني أن أترك المجال لمبادرة العاطفة والمجتمع، وهكذا فإنّ اللغة بطبيعتها بنيتها تنطوي على علاقة استلاب قاهرة، ليس النطق أو الخطاب بالأحرى تبليغا كما يقال عادة، إنّ إخضاع، فاللغة توجيه وإخضاع معّمان." (بارث، 1993، صفحة 12)

والمستشف من هذا أنّ سلطة اللغة رمزيّة، والسلطة الرمزيّة باصطلاح بيير بورديو Pierre Bourdieu "سلطة لا مرئية، ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها." (بورديو، 2007، صفحة 48) ثم إنّ وتر هذه السلطة مشدود إلى سلطة المجتمع أيضا، باعتبار ما تفرضه السياقات الاجتماعية على المتلاقي من استعمال تعابير دون آخر، لتصبح اللغة بذلك مهمينة ومهيمنة عليها في آن. وهذا ما يجعل ثنائية (اللغة/ السلطة) -اليوم- أبرز مباحث اللسانيات الاجتماعية، من أجل الرّفع من مستوى الوعي بالعلاقات الاجتماعية القائمة على الاستغلال باستخدام اللغة. وما دامت كلّ سياسة لغويّة بطبيعتها ستدخل حتما في اللعبة التي يتناوب فيها الحدّان: سلطة اللغة ولغة السلطة، أولهما ماضٍ نحو تنفيذ إملاءاتها الجبريّة ويجري الآخر نحو تحقيق السلطة عبر عتبة اللغة دون

المساس بسلطتها، ومن هنا تتولّد أهميّة "زيادة الوعي بالأسلوب الذي تسهم به اللغة في تمكين بعض الناس من السيطرة على البعض الآخر؛ لأنّ الوعي يمثّل الخطوة الأولى على طريق التحرّر". (فيركف، 2016، صفحة 15)

وتحقيق السّلطة منوطٌ بطبيعتها المحدّدة سلفاً بين المتخاطبين، وعلى أساس منها تتحدّد استراتيجيّات الممارسة وتنوّع، لاسيما أنّ لغة الخطاب الإعلاميّ - اليوم - لم تعد لغة الأمس، فقد أمكنتها التّقنيات الحديثة من تجاوز المكان عن طريق تضخيم الحقائق أو تغييرها بالاعتماد على الصّور والكلمات، التي كثيراً ما تتجرّد من دلالاتها الوضعيّة لتغدو رموزاً مُشعبة بالحمولات والتصنيفات. ويتبدّى حرص الإعلام السياسيّ على ممارسة السّلطة انطلاقاً من الميل الجارف إلى تنخيل اللّغة وشحن طاقتها في ضوء ما تبيحه سلطتها الإلزاميّة، وكلّ انتقاء لغويّ هو بالضرورة انتقاء إيديولوجيّ ومكاشفة للانتماء ومحدّد للاتّجاه ومبرّر للسلوك أيضاً. ولا بدّ أن يتحكّم في كلّ خلق لغويّ طبيعة الأحداث وصفا وحجما وأثرا وتحليلا، فترى مصطلحات وتعبيرات تفرض سلطتها على المتلقي وتأخذ مسارها الطّبيعي نحو المعجم دونما اعتراض، على غرار "شرق أوسط جديد، أو شرق أوسط كبير، فلا يخفى ما في هذا النّعت من إغراء للمتلقّي العربي الذي يبحث عن الجديد في عالمه المهزوم، وعن الكبير في ظلّ سياسة الحدود المغلقة والإجراءات المعقّدة في السّفر والتنقّل (...) وربما لا يدرك أصحاب الإعلام أنّ هذا المصطلح يريد صناعة شرق أوسط جديد على الطريقة الغربيّة، فيه الجدّة التي لا تعني الفائدة، وفيه الكبر الذي لا يتيح للمواطن العربيّ حرّيّة الحركة والتنقّل، ولكنّه في المقابل يسمح بخلق واقع جغرافيّ يسمح بدخول عناصر جديدة إلى الشّرق الكبير المفترَض، وهذه الجدّة قد تبدأ بالكيان الصهيوني ولكن لا تنتهي بها، فهناك كيانات جديدة بدأت تتشكّل في المنطقة لتشكّل منظومة شرق أوسط جديد." (عودة، دت، صفحة 4)

ومن الطّبيعي جدّاً أن تختلف المادّة المعجميّة الإعلاميّة المتولّدة باختلاف الوقائع الإعلاميّة الحادثة أو المرتبّة أيضاً، ويحدث أن يبتدعها إعلاميّ أو سياسيّ أو خبري أو محلّ ثمّ يُكتب لها الشّيع ويثبتها المعجم، حيث بمجرد التّلّف بها يتمّ استحضار الواقعة بحقيّاتها وتفصيلها، ولا يخفى دور الحروب تحديداً في صناعة المداخل المعجميّة، وإثّما لتتغايّر لزاماً تبعاً لطبيعة الحرب وأطرافها وغاياتها، كما أنّها تتجدّد وفقاً لسيرواتها ومساراتها أيضاً، ولعلّ أدنى المقارنات بين المعاجم الإعلاميّة في الصّراعات السياسيّة المختلفة تنبئ بحجم الفروقات الحاصلة، بل إنّها لشديدة التّباین في إطار الحدث الواحد على مدار مراحلها التاريخيّة، تماماً كما هو جارٍ في التّغطية الإعلاميّة للصّراع المتصاعد بين فلسطين والجبهة المحتلّة.

طوفان الأقصى والحرب اللغوية الموازية

(طوفان الأقصى.. عمليّة غير مسبوقه صدمت إسرائيل) هكذا غطّى الإعلاميون حدث أكبر العمليّات العسكريّة ذات المناهج غير التّمطيّة التي قامت بها كتائب القسام داخل مستوطنات غزّة في السّابع من أكتوبر 2023، والتي لا تزال تُسفر عن أوضاع شديدة التّأزم بالقطاع في ظلّ سياسة (الثأر) و(ردّ الاعتبار) الإسرائيليّة، وقد أدّت التّأويلات الإعلاميّة العالميّة المفرطة والمزايم الإسرائيليّة المنحرفة إلى إصدار حماس وثيقة بعنوان: (هذه روايتنا.. لماذا طوفان الأقصى؟) كشافة لمشروعيتّه المكفولة في القانون الدوليّ والشّرائع والأعراف البشريّة بعد أن استنفذت سبل الرّهان على الأمم المتّحدة في التّمكين، وما دام المأخوذ بالقوّة لا يستردّ إلّا بالقوّة كانت "عمليّة طوفان الأقصى خطوة ضروريّة واستجابة طبيعيّة لمواجهة ما يُحاك من مخطّطات إسرائيليّة تستهدف تصفية القضية الفلسطينيّة، والسيطرة على الأرض وتحويلها، وحسم السّيادة على المسجد الأقصى والمقدّسات، وإنهاء الحصار الجائر على قطاع غزّة، وخطة طبيعيّة في إطار التّخلّص من

الاحتلال واستعادة الحقوق الوطنية، وإنجاز الاستقلال والحرية كباقي شعوب العالم، وحق تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس". (حماس، دت، صفحة 6)

بعيدا عن المقتضى السياسي الخالص والتزاماً بأهداف البحث يكفينا التركيز على ما يوازي تصعيد هذه الحرب من حرب لغوية، فعلى غرار السلاح تستطيع اللغة القتل أيضاً، بل ليس من المغالاة اعتبارها "ساحة من ساحات الحرب وأداة من أدواتها، إنها حرب بالمعنى المجازي حيناً وبالمعنى الحقيقي في أغلب الأحيان (...). ولا بدّ من أن تتغيّر اللغة في هذه الحرب، فتغيّرها حتميّ كتغيّر العالم." (كالفي، 2008، صفحة 23) تماماً كما يُرى في أسماء الحروب الدائرة على التوالي بين فلسطين والاحتلال الصهيوني، فمن معركة (الفرقان) في 2008 إلى معركة (حجارة السجيل) في 2012، مروراً بـ (العصف المأكول) في 2014 ثمّ (سيف القدس) في 2021 و(وحدة السّاحات) عام 2022 وصولاً إلى (طوفان الأقصى) اليوم. فالظاهر أنّ مجمل هذه التسميات غير تعسفية إنّما هي شحنات رمزية وتعبئات سياسية وأبناء إيديولوجية أيضاً، والظاهرة متقدمة غير محتكرة، ويُعتبر الألمان أول من ابتدعها في الحرب العالمية الأولى، وتنامى تداولها حتّى جعلت لها قوانين وبروتوكولات محدّدة، كمنع استخدام الأسماء الموحية بالثقة المفرطة والأنا المتعالية مع التشديد على وصلها بأهدافها الاستراتيجية، كحال (طوفان الأقصى) المرتبط أساساً- وفق تصريحات خبراء الشؤون الأمنية في غزة- بالمسجد الأقصى وما يتعرّض له من تدنيس مع محاولة تقسيمه زمانياً ومكانياً رغم ما بذلته حركة المقاومة من حملات الاستنكار والإنذار، وقد جاء في تصريح رئيس المكتب السياسي لحركة حماس (إسماعيل هنية): "لقد حذرنا العالم والحكومة الإسرائيلية الفاشية من المساس بالمسجد الأقصى والقدس، وقلنا لهم لا تلعبوا بالنار، ولا تتجاوزوا الخطّ الأحمر، ولكنهم صمّوا آذانهم وأعموا أبصارهم." (الرجوب، 2023) فكان ردّ قيادة القسام غير كلّ الردود، فقد قرّرت وضع حدّ لكلّ جرائم الاحتلال، لأنّه انتهى الوقت الذي يعرّب فيه دون حساب بتصريح محمد الضيف. (الرجوب، 2023)

المقاربة السوسiolسانية

ننطلق في مقاربة بعض الوحدات المعجمية الإعلامية العربية لطوفان الأقصى سوسiolسائياً ممّا يحدّده فيليب بلانشي (Philippe Blanchet) من تدليل قائلاً: "في المقاربة السوسiolسائية كلّ ما هو اجتماعي هو لغوي، وكلّ ما هو لغويّ راجع إلى ديناميّة اجتماعية، وفي المستوى الأنثروبولوجي تعدّ الممارسات اللغوية التي نطلق عليها تقليدياً وبشكل اختزاليّ اسم اللغات وقائع اجتماعية كلّية؛ أي أنّها موجودة بشكل كبير في المجتمع، وأنّ لا شيء ممّا يحدث فيه بعيد عن الطّابع اللغوي ولو بدرجات متفاوتة، بالمقابل ترتبط اللغة ارتباطاً مباشراً وبشكل تلازميّ بمجموع الممارسات الاجتماعية، كما أنّ المجتمع موجود في كلّ شيء خاصّ باللغة." (بلانشي، 2021، الصفحات 44-45) والمفاد منه أنّ الوقائع اللغوية وصّافة للوقائع الاجتماعية، وكشّافة للأنساق المضمرّة، ومجهر للدّهنيات والإيديولوجيات، ومدخل لاستقراء المعايير الاجتماعية المتحكّمة في السلوك اللغوي، وتمتّع أهمية المقاربة السوسiolسانية من "أهمية اللسانيات الاجتماعية في استدراكها ما أغفلته اللسانيات، على غرار السياق، الذي تنغى به بيان أثر العوامل الاجتماعية في استعمالاتنا اللغوية، وبه بيان موقع اللغة في الحياة الإنسانية" (بريك و عزوز، 2020، صفحة 378). ويرتكز المنهج السوسiolساني إلى عنصرين مهمين: دراسة الحالة، والمسح (بريك و عزوز، 2020، صفحة 383)، فأما أولهما فجار نحو تحليل واع للبيانات المتعلّقة بوحدة البحث فرداً كان أو مجتمعاً، ويجري نحو جمع البيانات اللازمة للتحليل ثانيهما، ولهذا فإنّنا ملزمون في هذا البحث بجمع الدائع من المواد المعجمية الإعلامية العربية لحرب غزة وفق الإطار الزمني المحدّد سلفاً، ثمّ تحليلها ابتغاء رصد ما يتسرّب من تصوّرات اجتماعية خلف هذه المختارات اللغوية، لأنّ اللغة في المنظور السوسiolساني لا قيمة لها إلّا في حدود تداولها، فهو الأوحّد الكفيل بسيرورة نشاطها الدلالي.

بناء على هذا، نجد أنّ الترشق بأسماء الحرب الموصوفة أعلاه هو فعل لغوي لا يمكنه الانفلات من التعبئة الاجتماعية، لهذا يتفق المحللون على أنّ اختيار الأسماء في المعارك الاستراتيجية مهمة صعبة؛ كونها تقتضي مراعاة مجموعة من العوامل المتنوعة بين بيئية ودينية وثقافية وعسكرية ونفسية وما إلى ذلك، فالمستشعر من (طوفان الأقصى) من منظور سوسيولوجي "خلق حافزة داخلية لدى منتسبي المقاومة وأذرعها العسكرية من جهة وفي الحاضنة الشعبية من جهة أخرى، فالأقصى محل إجماع فلسطيني رغم اختلاف النهج والبرامج السياسية". (الرجوب، 2023) كما يتجاوز اللّحمة المحلية إلى إحياء الالتفاف العربي والإسلامي حول قضية الأقصى التي لا يختلف على قيمتها الدينية اثنان، فرغم أنّ الحصار على غزة ولواحقه أثقل الملقات إلا أنّ حركة المقاومة تتوحى من لفظ (الأقصى) الأمل المتصاعد في استرداد غزة الأرض وحرمة العرض، ولعلّه أصلاً استشراف لبنوء الشيخ أحمد ياسين بزوال إسرائيل عام 2027! ولم تُذكر المقاومة سلفاً أنّ هذا الأمل المشروع يستوجب سلسلة من التضحيات الجسام في ظلّ المعلوم من الممارسات اللاإنسانية للعدو الذي يتمادى حلفاؤه في دعمه، إنهم "يتعاملون مع إسرائيل منذ إنشائها كدولة فوق القانون، ويوقرون الغطاء اللّازم لاستمرار احتلالها وقمعها للشعب الفلسطيني، ومصادرة المزيد من أرضه ومقدساته وتجويعها، وفرض ظروف معيشية قاسية وبيئات طاردة" (حماس، دت، صفحة 4)، ومع ذلك أخلصت الالتزام بأنّ (شوقي، دت، صفحة 456):

لِلْحُرِّيَةِ الْحَمْرَاءِ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدْقُ

ولعلّ في السابقة (طوفان) ما يدعم القصد كونه يوحى -لغة- بحجم المدد في كلّ شيء (العربية، دت، صفحة 571)، مدد يمتح ممّا تحتفظ به الشرائع المتداولة من طوفان تطلب استعداداً مسبقاً بوحى ربّانيّ وأذن بهلاك مدبر! ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت 14] وكأنّ التّركيب (طوفان الأقصى) يجري بإسقاط عرفانيّ نحو واقعة مماثلة تنجو فيها القضية الفلسطينية بغلبة طاغية! غلبة تسمح بامتداد معناه إلى قوة ارتداد طبيعية، شبيهة بالانفجار الفيزيائي جرّاء شدة الضّغط! انفجار لا يُجحد أضراره ولا تُحمد عواقبه، وكذلك حقّ لطوفان الأقصى حتّى بات يعرف إعلامياً بأنّه "أكبر عملية شنتها المقاومة الفلسطينية على إسرائيل، وشملت هجوماً برياً وبحرياً وجويّاً وتسليلاً للمقاومين إلى عدّة مستوطنات في غلاف غزة". (وطن، دت) وقد أكّد قائد الأركان في كتائب القسام محمد الضيف حجمه في مراسلة صوتية مؤرّخة في السابع من أكتوبر 2023 تقول: "اليوم هو يوم المعركة الكبرى لإنهاء الاحتلال الأخير على سطح الأرض". (وطن، دت) ورغم هذا الوصف لم يخرق الطوفان مبادئ القتال المسلّم بها في الجبهات الفلسطينية، فقد جاء في بيان حماس -عقب كثرة الروايات الإسرائيلية المغالطة-: "إنّ تجنّب استهداف المدنيين وخصوصاً النساء والأطفال وكبار السنّ هو التزام ديني وأخلاقي يترتّب عليه أبناء حماس، ونحن نؤكد ما قلناه مراراً بأنّ مقاومتنا منضبطة بضوابط وتعليمات ديننا الإسلامي الحنيف" (حماس، دت، صفحة 7).

كان من البداية جدّاً إطلاق عملية عسكرية مُقابلة ردّاً للاعتبار وفقاً للمزاعم المتداولة، لم تشأ لها إسرائيل الجريان من غير اسم يشتغل ندّاً لطوفان الأقصى، فالشيء -ولو حرباً- من غير اسم نكرة لا يُعتدّ به، فوقع اختيارها هذه المرّة على تسمية (السيوف الحديدية)! لتضاف إلى تسميات سابقة مثل: (الرصاص المصبوب) عام 2008، و(عمود السحاب) عام 2012، و(الجرف الصّامد) عام 2014 و(حارس الأسوار) عام 2021، و(الفجر الصّادق) عام 2022 (الدين، 2023)، وقد وجد هذا الاسم أيضاً مدخله إلى المعجم الإعلاميّ فعُرف بأنّه مجموعة من العمليات العسكرية ردّاً على عملية طوفان الأقصى، ومع وقوع الاتفاق على وجوب الاسم الرّمز ذي الأثر النفسي على الخصم لا يُستشعر من هذا الانتقاء ما ينبغي له، فالسيوف رمزٌ من رموز الحضارة العربية الإسلامية خصوصاً، وإرثٌ متقاوم رعيلاً بعد آخر، ولا تزال اللّغة العربيّة تحفظ أسماءها العديدة، ثمّ هل تكون من غير الحديد أصلاً؟ وهل في التّركيب ما يستعيدون به مجدداً خالداً؟ يبدو أنّ مباحثة الهجوم اللاتمطي أغلق الأفهام في منظور المحتلين قبل غيرهم، إذ تصدّرت عناوين تهكميّة جريدة هآرتس واصفةً

(السيوف الحديدية) بأنها في واقعها عملية كشف للعورة (سقوط السراويل)، أي ليس في المنتقى ما يُشعر به لأنه رغم عدّة الكيان وعتاده لم يستطع التنبؤ بهجوم المقاومة! واستنكر تنابها هو نفسه الاسم، متحججا بصلاحه للعملية دون الحرب، مقترحا في مجلس له أنه يليق بالحدث اسم حرب التكوين وفق تصريحات لقناة (كان) العبرية. (ليفنسون، 2023)

ومع أنه لا طاقة على إنكار ما يسرّه الاسم من دلالات تقريرية - قابلة للإمساك - تشتغل فيه الصفة (الحديدية) توكيدا صريحا للموصوف (السيوف) الوارد بصيغة الجمع إشعارا بالقوة اللامتناهية والغطرسة المشروعة - المؤثقة في قول الكاتب الصهيوني جدعون ليفي: "فكرنا أنه مسموح لنا أن نفعل أي شيء، وأننا لن ندفع ثمنا، ولن نعاقب على ذلك أبدا" (وتد، 2023) - يجري تدليل قائل: إن التسمية توراتية تلمودية، حيث ورد أن: "التسمية لا تخلو من تأصيل توراتي أو تلمودي في محاولة لمنحها مشروعية دينية وهالة مقدسة، ففي التوراة في سفر صموئيل الأول الإصحاح الثالثة عشر ثمة إشارة إلى أن الفلسطينيين كانوا يحتكرون تشذيب الأدوات الحديدية لئلا يصنع منها الإسرائيليون سيوفا ورمحا حديدية، فكأن إطلاق سيوف من حديد جاء انتقاما معاصرا من حرمان الإسرائيليين من تصنيع الأسلحة الحديدية قبل آلاف الأعوام بحسب السردية التوراتية... وفيها أيضا في سفر الرؤيا في الإصحاح التاسعة عشر تفتح السماء لتهبط منها فرس عليها فارس عيناه كلهيب نار، وعلى رأسه تيجان كثيرة، متسريل بثوب مغموس بدم، وخلفه أجناد على خيل بيض، ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم، وهو سيرعاها بعضا من حديد." (عيتاني، 2023) لا يهمننا تأثيل السند هنا بقدر ما يشغلنا أثر العامل السوسيوثقافي في هذه الصنعة اللفظية، المتوسلة للممة تشرذم اليهود واستنهاضهم أينما كانوا لدعم الحرب على غزة.

وحدات معجمية على هامش الحرب

على غرار أسماء الحرب هذه نشأت مواد لغوية مكنت حظوظها التداولية من تأسيس معجم خاص، ذي مداخل متنوعة تجمع بين المفردات والتعبيرات الاصطلاحية، نحاول بياها وفق ما هو ثابت في الأحداث الإعلامية المرافقة للحرب، التي تؤكد جريان معركة مفهومية موازية للمعركة المسلحة، بحيث على قدر إسهام بعضها في تضليل الرأي العام بترويج السردية الإسرائيلية لا يستطيع متدبرها تجاوز دسائسها الإيديولوجية، وفي المقابل يعمل بعضها الآخر على مكاشفة طروحات القيمة في كنف الحرب بين فئتين متعارضتين على أصعدة شتى.

- الرواية:

أوتي هذا اللفظ حظا إعلاميا مُلفتا للانتباه مع بدايات هذه الحرب رغم تقادمه زمنا في تاريخ القضية الفلسطينية، فالرواية الإسرائيلية موجودة منذ ابتداع مقولة: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، لكنه ازداد شيوعا بعد إصدار حماس وثيقة بعنوان (هذه روايتنا.. لماذا طوفان الأقصى) في 21 يناير 2024، المشعر لزاما بوجود رواية سيّدة تُناقضها تماما، فكانت هي من باب الرد على ما تعتبره ادّعاءات وافتراءات إسرائيلية لا متناهية، مشفوعا بتنويرات للشعب الفلسطيني والشعوب العربية والرأي العام العالمي، مع تنديدات بالقرارات الوهمية للأمم المتحدة.

في ضوء المقاربة السوسiolسانية تنحاز الرواية هنا إلى دالتين متعارضتين: أولاها تجري مجرى الرواية الفنية المبنية على سردية يتجاذبها الخيال، وأخرى توجهها نحو طرح الوقائع ومناقشة الحقائق وتبرير المواقف بعيدا عن لوازم السرد النمطية. لقد تجددت الرواية الإسرائيلية عقب الإنجاز المشهود للمقاومين الفلسطينيين، الذي جاء على حين غرة تاركا مساحات ممتدة من الدّهول والقلق والاضطراب، إذ سارع المستوطنون في إلقاء اللائمة على الكيان الإسرائيلي الذي لم يستطع التنبؤ بنوايا المقاومة ولا التصدي لهجماتها المتزامنة برا وبحرا وجوا. إن إيهام المقاومة عدوها بعدم الرغبة في القتال ردحا من الزمن مكن من تعميق فجوة الصدمة، حيث قلب تنبأها الحقائق وزور الأحداث وقدم

مشاهد تاريخه الشنيع على أتمّ جرائم مروّعة ضدّ الإسرائيليين، واصفا -بنبرة حزينة- المقاومة بأتمّ داعش؛ لاستحضار مختلف الصّور القاسية المنقولة عنها، متّهما حماس بأتمّ فعلت فعلها، لقد قتلت واغتصبت ونكّلت وقطّعت رؤوس الأطفال أيضا، وقد أمكن لهذا السرد المتواتر نيل استعطف السّطة الأمريكيّة وحلفائها، فتوالت خطاباتها الإعلامية الاستنكارية في ظاهر لفظها وتشتغل في باطنه على تبرير الحرب ودعمها. لقد تطلّب دحض هذه الرّواية الإسرائيليّة الاسترفاد بالمقاومة على صعيدين: الميدان والإعلام، فأما الأوّل فأجبر العالم على الاستبصار والاستذهان رغم الحصار الإعلامي؛ لأنّه رواية واقعيّة تُسرّب الحقائق وتكشف أغلاط السردية الإسرائيليّة، التي دأبت على استخدام لغة واهمة تحلّ محلّ الحقيقة بالتكرار المستمر، عملا بمقولة: "اكذب ثمّ اكذب حتّى يصدّقك النّاس"، على غرار استعمال تعبيرات: الدّفاع عن النّفس، جيش الدفاع، حماس إرهابيّة، هجوم حماس... وأما الثاني فكان عبر الرواية المضادّة، يعني هناك رواية فلسطينيّة لا بدّ من تسويقها، لقد كانت وثيقة (هذه روايتنا) ردّا بالكتابة، لأنّ الكتابة شهادة حيّة، وذاكرة خالدة، واعتراف بالوجود، والتزام بالعهود وكأنّ لسان حال الفلسطينيين يقول: (العرعر، 2024، صفحة 24)

إذا كان لا بدّ أن أموت

فليأت موتي بالأمل

وليصبح حكاية

- أبو عبيدة:

أتبعناه بالرّواية لأنّه بات أحد معاوّلها الإعلامية الموثوقة عالميا بوصفه صوت القضية ومنبرها، لقد استطاع إدارة الحرب الإعلامية بكفاءة عالية حوّله إلى أيقونة طوفان الأقصى رغم تقادم عهده بها، إذ يترقّب النّاس من كلّ صوب وحذب خطابه المشبع إيتوسا ولوغوسا وبوتوسا، خطاب يصف حضورا بحجم ثبات المقاومة الفلسطينية، وبمقاس نبل الغاية المنشودة، حضور يمتّح من تاريخ المكتّى به (أبو عبيدة بن الجراح) تيمّنا بأمجاده، يتقدّمها فتح القدس، والمفاد من هذا الانتقاء من زاوية سوسيولسانيّة الالتزام الصّريح بثوابت الدين وهدي الأوّلين باعتبار الاسم نصّا تاريخيّاً ووثيقة اجتماعية وثقافية، وخطابا إيديولوجيّاً، إنه ليس مجرد نظام لغويّ مغلق التّعيين، بل ترجمان صادق لحضارة أمة فكريا وفعلا.

- الملثّم:

لا يختلف اثنان في انقلاب موازين النظريّات الكينيّة عبر خرق أبي عبيدة لقاعدة (الفهم والإفهام) المشروطة ببيان الوجه بوصفه خارطة الجسد ما دام "غير منفصل عن العقلاني والروحاني في الوجود والمعرفة والمعايير منذ بداية حياة الفرد إلى نهايتها، لأنّه ماثل في كلّ شيء، بل إنّ الإنسان عينه" (زبور، 1991، صفحة 123). إنّ الغموض الذي مارسه غياب الوجه عبر اللثام خوّله رمزا للمقاومة، يحاكي ما يكتنفها هي الأخرى من غموض مقصود تقتضيه طبيعة الحرب، ثمّ لعلّ في المرويات التاريخية ما يرجّح انتسابه إلى بنية عقديّة قبل حربيّة، مستخرّة لتزكية ثيمات اجتماعيّة معلومة. والثابت أنّه يصف في بعد سوسيولسانيّ آخر غلبة النّسق اللّغوي على النّسق الكينيّ، فحرب اللغة حرب نفسيّة لا تقلّ ضراوة عن حرب السّلاح بل هي سبب مباشر في ذكّوها، يقول لويس جان كالفي: "اللغة ساحة من ساحات الحرب وأداة من أدواتها." (كالفي، 2008، صفحة 23) إذن المنتقى اللفظي "ليس برينا على الإطلاق، لأنّ له ذاكرة تغوص في عمق الدلالات الجديدة بطريقة عجيبة" (بارث، الكتابة في درجة الصفر، 2002، صفحة 24).

- المسافة صفر:

تعبير اصطلاحيّ من مفرزات الطوفان اكتسح السّاحة الإعلاميّة بعد أن وثّقته المقاومة تصويرًا، حتّى تحوّل إلى ترند ألهم الفنّ الروائي والسينمائي لانبثائه على معادلة غير متكافئة الأطراف، خالفت نتائجها المألوف، بفضل تمتّع المقاومين بالحنكة والفطنة والجرأة والتّحدي والإقدام، فعلى بعد أمتار معدودة أو لا تكاد تعدّ استطاعوا تنفيذ عمليّات عسكريّة نوعيّة رغم ما تحظى به آلات العدو من صناعة محكمة الإتقان والتقانة. وبات على إثرها رمزا للنجاح رغم ضآلة الأسباب، سوسيو لسانيا سيزيد هذا من شحنة تعاطف الشعب الفلسطينيّ ومناصريه مع المقاومة من جهة، في مقابل ذلك يمارس سوسيو لسانيا نوعا من تقزيم الآخر واحتقاره، بتصوير واقع حيّ يشهد بأنّ ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَبِيرَةً﴾ [البقرة 249]

- شهداء/ ضحايا:

لا يُنكر مسلم ما يحمله لفظ الشّهادة من ثقل ثقافيّ مشدود بإحكام إلى المرجعيّة الدينيّة، حيث يستوطن مخيلته كحلّم يرجو مناله لما يتضمّنه من وعد النّعيم، فتوصيف (شهيد) لكلّ ضحيّة فلسطينيّة يؤدّي دورا مهمّا في تأطير الفقد إيديولوجيًا، حيث تتحوّل المأساة إلى غنيمة رغم طمس الحدود الفاصلة بين التّضحية الطّوعيّة في سبيل الوطن والمعاناة القسريّة جرّاء العنف المسلّط. والحاصل السّوسيو لساني منها أنّ التّضحية رغم ألقتها ستصرف الانتباه عن المسؤوليّة الواعية تجاه هذه المعاناة، فلا تكاد تبين الفواصل بين ما هو حقّا خارج عن السيطرة وما ينبغي أن يقع ضمن الخيارات الفعلية المسهمة في استمرار المعاناة. إنّ هذا التّشويش تمارسه اللّغة في الحقيقة، فبين شهيد وضحيّة تتخلّق أطر تطبيع الطّروف وديمومتها، فتتحوّل لوازمها من قبيل: الصّبر والصّمود والتّحمّل والتّشرد... إلى ثقافة راسخة تنظر إليها على أنّها فضائل وغايات أيضًا، لا عتبات على مشارف الحرّية.

- لا سمح الله:

تعبير تخطّى دارج الكلام المحمول على الدّعاء ليمارس التّقذ والسّخرية، لقد أمكن لأبي عبدة الإسهام في إضفاء دلالات جديدة عبر تخلص الألفاظ من دلالاتها الوضعيّة ومنحها دلالات مجازيّة تتحوّل إلى حقيقيّة بفرط استعمالها، حيث تداولها رواد مواقع التواصل الاجتماعيّ على نطاق شديد الاتّساع، مناصرين أبا عبدة في تهكّمه من الأنظمة العربيّة لما قال: "إنّنا لا نطالبكم بالتحرك لتدافعوا عن أطفال العروبة والإسلام في غزّة من خلال تحريك جيوشكم ودباباتكم لا سمح الله" (الفلسطيني، 2023)، فبات التعبير مثلاً يضرب في سياقات التخاذل والعودة عن النّصرة، وهذا كفيل بتقديم مطارحات اجتماعيّة كشفافة لما آلت إليه الأمة العربيّة المسلمة من سيادة واهمة ومصير معلّق، يستجمع حالها قول تميم البرغوثي: (البرغوثي، 2012)

سِتَوْنَ عَامًا وَمَا بِكُمْ حَاجِلُ الْمُؤْتِ فِينَا وَفِيكُمْ الْقَرْعُ

- يا ابن اليهوديّة:

أتتوّعدنا بما ننتظر يا (ابن اليهوديّة)؟! هكذا ردّ أبو عبدة على وعيد وزير الحرب الإسرائيليّ بالاجتياح البري لغزّة، ولا مرأى أنّهما كلمتان ثقيلتان في الميزان السوسيو لساني، كفتيلتان بإذكاء الحرب النفسيّة في نفس الآخر/ العدو لما فيهما من عنف لغويّ صريح يؤسّس تصنيفا دلاليّا يجعله في ذيل قائمة الدّوات الإنسانيّة؛ لأنّ "العنف يتّجه في مساره بوضوح أو بغموض بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى السيطرة على الآخر والهيمنة على مقدّرات وجوده." (Ricoeur, 1995, p. 227) ويتنزّل هذا التّعبير تداوليًا في مقام الإشارات الاجتماعيّة الوصّافة لحجم العلاقات الاجتماعيّة بين المخاطبين، ومن غير الممكن أن يدلّ السّباب على مجرّد توتّرها بقدر ما ينبئ بعظيم الهوة الفارقة بينهما، لا يسعها غير معنى العداوة المطلقة؛ لأنّ الكلام عارٍ تمامًا من دلالاته التقريريّة جارٍ نحو استحضار تاريخ تحفظه أسفار اليهود،

تاريخ لا يزيدهم إلا خزيا، بحكم ما مستهم من سوء في العرض والشرف، ومنتهى القول منه أن (لا قضية لمن لا شرف له)، وفي مقابل ذلك: (المتني، صفحة 571)

لا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

- نمر من ورق:

يقع الاتفاق الدولي على هول حجم الخسائر البشرية والمادية التي تكبدها الشعب الفلسطيني من طوفان الأقصى، حجم يصادق على ما يمتلكه العدو من عدّة وعتاد وأسناد، امتلاك كفيل ببناء تصوّرات كبرى عن قوّة باطشة لا يمكنها أن تُقهر، تماما كنتك التي يحظى بها النمر في الثقافات العالميّة، خصوصا الصينيّة منها فهو "سيد كافة الحيوانات الأرضيّة" (سيرينج، 1992، صفحة 83)، ويعتبر طوطما مقدّسا، حتّالا لدلالات القوّة الملهمة والهيمنة المطلقة، ما خوّله رمزا طال الفنون والآداب والسلطة أيضا. وقد اشتهر فيها هذا التعبير (نمر من ورق) ونال حظوة عالميّة بعد استخدامه في باب المعارضة السياسيّة، ثمّ بات شعارا لكلّ شيء يبدو قويّا مهابا وهو في واقعه مغرق في الضعف والوهن، وهذا ما أريد له في سياق الطوفان، إذ تؤكد حيثيات الأحداث أنّ صورة (الوحش) زائفة، فقوّة المحمول لا تكافئها قوّة الحامل، أي أنّ الدمار الحادث لم ينطلق من بطولة ولا يعكس مهارة حربيّة، إنّما يتحصّن بما أوتي من صناعة الآلة، وبهذا يجري هذا التعبير سوسيلولسانيا مجرى العنف اللغوي أيضا إجماعا للرواية الإسرائيليّة من جهة، وتصحيحا للتصوّرات الذهنيّة العربيّة والعالميّة من جهة ثانية، وشحذا لهمة المقاومة من جهة أخرى، إنّّه مصادقة على أنّه (المتني، صفحة 315):

قَدْ يُظَنُّ شُجَاعًا مَنْ بِهِ خَرْقٌ وَقَدْ يُظَنُّ جَبَانًا مَنْ بِهِ زَمْعٌ
إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ الْمُخْلِطِ السَّبْعُ

- النّازية الجديدة:

تستلهم هذه المادّة المعجميّة دلالتها السوسيلولسانية من حاصل الإسقاط العرفانيّ بين حدّثين: أحدهما يمثّل فعل النّازيين باليهود، والآخر فعل الإسرائيليين بالفلسطينيين، وهو إسقاط تبثيريّ بالضرورة، محصور في مدى التّطهير العرقي، لأنّ المقارنة الواسعة بينهما تفضي إلى التماس نوع من التّهديب في النّازية القديمة، عكس الملموس في الموصوف الجديد. لقد اعتبر النّازيون اليهود عرقا أدنى يخلّ بصفاء العرق الآري الذي ينتمون إليه فوجبت تصفيتهم عبر سياسة الحلّ النهائي القاضية بقتلهم حيثما ثقفوا للخلاص منهم إلى الأبد، وهو ذات المسلك المنتهج مع الغزّاويين تحديدا باعتبارهم أغيارا إرهابا. وما يُحدث المفارقة الاجتماعيّة أنّ هذا المفهوم يصنع عربدته من التّنكّر للنداءات الشّعبيّة وعدم احترام الحقوق الإنسانيّة والاستعلاء على القرارات الدوليّة واحتقار الجمعيّة العامة للأمم المتحدة، فقد ورد في وثيقة حماس (هذه روايتنا) أنّ "السفير الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة قام بتمزيق تقرير مجلس حقوق الإنسان في وجه ممثلي دول العالم، مخبرا إياهم أنّ مكانه سلّة المهملات" (حماس، دت، صفحة 4)، كما لا يُجحد ما يُتيح التّطبيع مع الدّول العربيّة والإسلاميّة من إفراط في الطّموح والمؤدّي السوسيلولساني أيضا من هذا المدخل المعجميّ الاستنصار بالتاريخ عبر اللّغة لرفع الوعي العام العالمي بالخطر الإسرائيليّ المتنامي.

- عصا السّنوار:

شاءت أقدار طوفان الأقصى أن تُعيد العصا إلى مقدّمة الرّموز الدّالة على أنّ الحقّ وإنّ حقّه الضّعف ماضٍ قضائوه ما دام موصولا بيقين الله، ولنا في عصا موسى الآية ما به كمال البيان، وعلى منوالها جرت عصا السّنوار، فكما فتدت الأولى أباطيل سحرة فرعون مثبتة أنّ ﴿الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [المنافقون 8] جاءت الأخرى لتدحض الادّعاءات القائلة بأنّ قادة المقاومة في مأمن بينما شعبهم يواجه الموت أعزل، لقد أثبتت أنّهم في طليعة الصّفوف قولاً وفعلاً، لا يدّخرون جهداً في سبيل تحقيق المطالب المشروعة، "فالقضيّة الفلسطينيّة قضية حريّة وعدالة

وكرامة إنسانية، في مواجهة احتلال بغض وسياسة فصل عنصري وتدمير منهجي وإبادة جماعية" (حماس، دت، صفحة 12). إذن لقد انفلتت هذه العصا من دلائلها الوضعية التعيينية لتصبح رمزا للحقّ الملبس بجريان الباطل ابتغاء إطفاء نوره، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف 8]. لقد التقطت هذه الرمزية الأدب فبات من أمثالنا المحدث (رميته بعضا السنوار) إشعارا باستنفاد كلّ الفرص المتاحة ولو باستغراق الحياة نفسها، وهذا ما يُناسب ترجيح عصا السنوار كوصية أبدية للمقاومة ومن ينحو منحاسها: (كونوا للحقّ أو لا تكونوا)، وأجمل بالبرغوثي راثيا بقوله (البرغوثي، رما بالعصا، 2025):

رَمَى بِالْعَصَا جَيْشَ الْعَدُوِّ وَصِيَّةً لِمَنْ عِنْدَهُ غَيْرُ الْعِصِيِّ وَمَا رَمَى

- مستراح منه:

شاع هذا التعبير عقب اغتيال القائد (إسماعيل هنية) في إيران على سبيل الشّماتة، منسوبةً إلى السلفية المدخلية، المعروفة باتخاذ المسائل العقدية سبباً إلى تبني مواقف سياسية مخالفة، مثيرة بذلك بلبلة في الأوساط الثقافية العربية والعالمية. ولا يهّمنا من هذا الحدث غير دلالاته الضمنية على انفصام غرى الوحدة العربية من مدخل ديني، في وقت يتطلب منها التشديد على لُحمتها والدّود على مقدّساتها. إنّ الأمة المنخورة داخلياً يدركها التصدّع من كلّ جانب، فكان أولى بإسلامهم أن يكون محطّ ولاء واتّفاق، بعيداً عن الافتتان بالطائفية تحبّبا لاستفحال الظلم، ﴿فَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال 4٦] وردّا لتنامي إيديولوجيا هدامة للقوامة والقومية العربيتين، يتيسر على العدو استغلالها في زعزعة الثّوابت القيمة للمقاومة على الصّاعدين: المحلي والخارجي، إنّ في استبدال لفظ (الشّهيد) بـ (مُستراح منه) للقادة تحديدا محاولة لإيهام الشعب الفلسطيني بالانقياد إلى من يجرّهم إلى الموت طوعا، دفعا للتمرد والانسحاب، تماما كما تفعل تعبيرات إعلامية أخرى، كحرب غزّة، التصعيد في غزّة، إسرائيل وغزّة... المشعرة وهما باستواء الأوضاع فيما عدا غزّة، والمنذرة تباعا بتزكية الفرقة الاجتماعية بين أبناء الشعب الفلسطيني.

- وإنّه لجهاد نصر أو استشهاد:

جملة من صميم المتلازمات اللفظية لخطابات أبي عبيدة، وهي من ماثورات عزّ الدين القسام المستشهد في ثلاثينيات القرن الماضي، ما يعني أنّها شعار معبر يعكس قاعدة راسخة في المقاومة، يحتزل الرواية الفلسطينية المنبثقة من شرعية دينية تؤثّقها المؤنثات اللسانية: جهاد، نصر، استشهاد، فأولها يصدّق على مفهومه الأوسع المنوط بـ "استفراغ الوسع في مدافعة العدو" (الأصفهاني، دت، صفحة 131)، ما يجعله منظومة محكمة لا تحتل الارتمال والعبيّة، محدّدة المنهج والمقصد، مجرّدة من العدوان؛ لأنّ أصل العلاقة مع غير المسلمين المسالمة، وهو الملموس في فعل المقاومة، بوصفها "خطوة طبيعية في إطار التخلّص من الاحتلال، واستعادة الحقوق الوطنية، وإنجاز الاستقلال والحرية كباقي شعوب العالم". (حماس، دت، صفحة 6) هذه الأهداف المسطرة تستجمعها لاحقة النّصر كثيمة عزيزة تنصهر في بوتقتها كلّ الثّيمات الرديفة، وأمّا الاستشهاد فنصر من طبيعة أخرى، نصر بلذّة الوعد الربّاني، وكأنّ الشعار ماضٍ نحو قوله: وإنّه لجهاد نصر دنيوي أو نصر أخروي، وكلاهما حياة، يقول القرطبي: "الجهاد سبب الحياة في الظاهر والموت في الجهاد الحياة الأبدية". (القرطبي، 2006، صفحة 417) مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران 169] وبهذا يتحوّل هذا الختم اللغوي لأبي عبيدة إلى رمز لعلو الكعب، يشحن المعنويات ويشجذ الهمم من جهة، ويتوعّد الآخر بالتفاني المطلق في الكفاح والنضال من جهة أخرى، ولا بدّ ولو بعد حين (المتنبي، صفحة 315):

الدَّهْرُ مُعْتَدِرٌ وَالسَّيْفُ مُنْتَظَرٌ وَأَرْضُهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ وَمُتَرَبِّعٌ

خاتمة

عمادا على ما تقدّم يمكن الخلوص إلى أنّ طوفان الأقصى ولّد لغة داخل اللّغة، بابتداع معجم إعلاميّ عربيّ حريّ رديف للمعركة المسلّحة، خرجت ألفاظه وتعبيراته عن خدمة وضعها اللّغوي النمطيّ إلى ممارسة العنف الرمزيّ الكفيل بإدارة حرب نفسيّة موازية. والظاهر أنّ هذا المعجم يشغل على مداري الأنا (المقاومة) والآخر (الاحتلال) بناء وهدما، رفعا وخفضا، ومن شواهد المفارقة الإعلاميّة هيمنة مصطلحات المقاومة عليه، التي تجد مسوّغها في اعتماد الجبهة على الخطاب الإعلاميّ بلغة مرتقبة عالميّة. فمثلما استطاع مسّمي (طوفان الأقصى) خلق حافزيّة داخلية أمكن للمختارات اللغويّة المصاحبة له توجيه العناية الخارجيّة إلى الرّواية الفلسطينية المغلوطة، بتصحيح ما يتواتر من سرود شيطنة المقاومة على شعبها وعدوّها في آنٍ. كما تتبدّى خصوصيّة هذا المعجم في امتلاكه طاقات تستثير الاستذهان بما أوتيت من تعبئات سياسيّة وأنباء إيديولوجيّة أمكنها إنصاف القضية الفلسطينية على صعيد الرأى العالمي، حتّى بات الآخر يتوجّس خيفة من أن يعيد تاريخه نفسه، فعبثا يحاول باللّغة تقويض ما يسرده الميدان من حقائق لا يرقى إليها شكّ. كما يستند المعجم إلى مرجعيّات تاريخيّة ودينيّة تؤثّق صلة اللاحق بالسابق مبدأ ومنهجاً ورسالة، وتعمّق الشّعور بنصرة المقاومة دون الارتكان إلى ثقافة التسليم بفضيلة الصّبر ما لم تتبع بجهد مؤطّر، ولهذا نرى المعجم نزاعاً إلى تعديل التّصورات الذّهنيّة عن طرقي الصراع، ممّا يدفع بعجلة الهدف قدّما ولو بعد حين.

المصادر والمراجع:

1. أبو عبيدة الفلسطيني، تم الاسترداد من برامج الميادين بتاريخ 2023/10/28: <https://www.youtube.com/watch?v=05XJlPGwzTo>
2. أحمد شوقي، (دت)، الشوقيات، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.
3. بيار بورديو، (2007)، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، الدار البيضاء، المغرب.
4. تميم البرغوثي، تم الاسترداد من بوابة الشعراء بتاريخ: (2012/1/9) <https://poetsgate.com/poem.php?pm=92709/>
5. تميم البرغوثي، تم الاسترداد من بوابة الشعراء بتاريخ: (2012/1/9) <https://poetsgate.com/poem.php?pm=92709>
6. تميم البرغوثي، تم الاسترداد من بوابة الشعراء بتاريخ: (2012/1/9) <https://poetsgate.com/poem.php?pm=92709>
7. حاييم ليفنسون، 7 أكتوبر 2023 يوم عار في جيبين إسرائيل. تم الاسترداد من الجزيرة نت بتاريخ (2023/10/8): <https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/8/%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84-%D8%A8%D9%87%D8%A2%D8%B1%D8%AA%D8%B3-7-%D8%A3%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%A8%D8%B1-2023-%D9%8A%D9%88%D9%85-%D8%B9%D8%A7%D8%B1-%D9%81%D9%8A-%D8%AC%D8%A8%D9%8A%D9%86>
8. حبيب عز الدين، إسرائيل أمام خيارين: الزوال أو الحرب. تم الاسترداد من الميادين بتاريخ (2023/10/22): <https://www.almayadeen.net/Blog/-/%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84--%D8%A3%D9%85%D8%A7%D9%85-%D8%AE%D9%8A%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D9%86--%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%A7%D9%84-%D8%A3%D9%88-%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%B1%D8%A8>
9. حراق بن بريك وأحمد عزوز، المقاربة السوسيولوجية ودورها في تحليل النصوص التراثية: بعض النماذج من كتاب الإشارات الإلهيّة لأبي حيان التوحيد. مجلة لغة كلام، جامعة غليزان، الجزائر، مج6، ع4، 2020/12/10.
10. حركة المقاومة الإسلامية حماس، (دت)، هذه روايتنا لماذا طوفان الأقصى، المكتب الإعلامي.
11. خليل عودة، (دت)، الاستعمار اللغوي وعلاقته بالتغيير والأمن، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، مقال على الشابكة.
12. الراغب الأصفهاني، (دت)، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية.
13. رفعت العرعير، (2024)، غزة تردّ بالكتابة: رواية فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، ع138.

14. رولان بارث، (1993)، درس السيميولوجيا، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب.
15. رولان بارث، (2002)، الكتابة في درجة الصفر. مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا.
16. علي زيعور، (1991)، اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، لبنان.
17. علي عبد الواحد وافي، (1983)، اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ، السعودية.
18. عوض الرجوب، من سيف القدس إلى طوفان الأقصى كيف تختار المقاومة أسماء معاركها، تم الاسترداد من الجزيرة نت بتاريخ: [https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/9/%D9%85%D9%86-\(2023/10/9\)%D8%B3%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D8%B3-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%B7%D9%88%D9%81%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%82%D8%B5%D9%89-%D9%83%D9%8A%D9%81](https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/9/%D9%85%D9%86-(2023/10/9)%D8%B3%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D8%B3-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%B7%D9%88%D9%81%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%82%D8%B5%D9%89-%D9%83%D9%8A%D9%81)
19. فيليب بلانشي. 2021، أثر السياقات السوسيوإلسانية في ممارسات التعدد اللغوي الأسري ونقله، ترجمة: مصطفى علي شريف، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافة، الجزائر، ع94.
20. فيليب سيرينج، (1992)، الرموز في الفن الأديان الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا.
21. لويس جان كالفلي، (2008)، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة: حسن حمزة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
22. مجمع اللغة العربية، (دت)، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، مصر.
23. محمد عزة دروزة، (1980)، العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها، دار الكلمة، لبنان.
24. محمد وتد، إسرائيل تلغى ثمن سجن مليوني إنسان في غزة. تم الاسترداد من الجزيرة نت بتاريخ: (2023/10/10): <https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/10/%D8%AC%D8%AF%D8%B9%D9%88%D9%86-%D9%84%D9%8A%D9%81%D9%8A-%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84-%D8%AA%D8%AF%D9%81%D8%B9-%D8%AB%D9%85%D9%86-%D8%B3%D8%AC%D9%86-%D9%85%D9%84%D9%8A%D9%88%D9%86%D9%8A>
25. نورمان فيركلف، (2016)، اللغة والسلطة، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر.
26. معركة طوفان الأقصى تم الاسترداد من موقع تلفزيون وطن بتاريخ: (2025/3/27): <https://watanegypt.tv/%d9%85%d8%b9%d8%b1%d9%83%d8%a9-%d8%b7%d9%88%d9%81%d8%a7%d9%86-%d8%a7%d9%84%d8%a3%d9%82%d8%b5%d9%89>
27. Paul Ricoeur. *Histoire et vérité*. le seuil. paris 1995.

References:

- Abū 'Ubaydah al-Filasfīnī, *tamma alāstrdād min Barāmij al-mayādīn bi-tārīkh* 28/10/2023 : <https://www.youtube.com/watch?v=05XJIPGwzTo>
2. akhmd Shawqī, (dt), *al-Shawqīyāt, Mu'assasat Hindāwī lil-ta'līm wa-al-Thaqāfah, al-Qāhirah, Miṣr.*
3. Bayār bwrđyw, (2007), *al-ramz wa-al-sultāh, tarjamat : 'Abd al-Salām ibn 'Abd al-'Ālī, al-Dār al-Bayḍā', al-Maghrib.*
- Tamīm al-Barghūthī, tamma alāstrdād min bawwābat al-shu'arā' bi-tārīkh* : (9/1 / 2012) / <https://poetsgate.com/poem.php?pm=92709>
5. *Tamīm al-Barghūthī, tamma alāstrdād min bawwābat al-shu'arā' bi-tārīkh* : (9/1 / 2012) <https://poetsgate.com/poem.php?pm=92709>
6. *Tamīm al-Barghūthī, tamma alāstrdād min bawwābat al-shu'arā' bi-tārīkh* (9/1 / 2012) <https://poetsgate.com/poem.php?pm=92709>
- Hāyīm lyfnswn, 7 Uktūbir 2023 yawm 'Ārin fī jabīn Isrā'īl. tamma alāstrdād min al-Jazīrah Nīt bi-tārīkh* (8/10/2023) : <https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/8/%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84-%D8%A8%D9%87%D8%A2%D8%B1%D8%AA%D8%B3-7-%D8%A3%D9%83%D8%AA%D9%88%D8%A8%D8%B1-2023-%D9%8A%D9%88%D9%85-%D8%B9%D8%A7%D8%B1-%D9%81%D9%8A-%D8%AC%D8%A8%D9%8A%D9%86>
- Ḥabīb 'Izz al-Dīn, Isrā'īl amāma khiyārāyn : al-zawāl aw al-ḥarb. tamma alāstrdād min al-mayādīn bi-tārīkh* (22/10/2023) : <https://www.almayadeen.net/Blog/-/%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84--%D8%A3%D9%85%D8%A7%D9%85-%D8%AE%D9%8A%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D9%86--%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%A7%D9%84-%D8%A3%D9%88-%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%B1%D8%A8>



Ḥarrāq ibn Burayk wa-Aḥmad 'Azzūz, al-muqārabah alsywsywsānyh wa-dawruhā fī taḥlīl al-nuṣūṣ al-turāthīyah : ba'd al-namādhij min Kitāb al-Ishārāt al'lhyh li-Abī Ḥayyān al-Tawḥīdī. Majallat Lughat kalām, Jāmi'at Ghulayzān, al-Jazā'ir, mj6, '4, 10/12/2020.

. Ḥarakat al-muqāwamah al-Islāmīyah Ḥamās, (dt), Hādhihi rwāytnā Li-mādhā Tūfān al-Aqṣá, al-Maktab al-I'lāmī.

11. Khalīl 'Awdah, (dt), al-isti'mār al-lughawī wa-'alāqatuhu bi-al-taghyīr wa-al-amn, Jāmi'at al-Najāh al-Waṭanīyah, Filasṭīn, maqāl 'alā al-shābikah.

al-Rāghib al-Aṣfahānī, (dt), al-Mufradāt fī Gharīb al-Qur'ān, Maktabat Nizār Muṣṭafá al-Bāz, al-Sa'ūdīyah.

13. Rif'at al'r'yr, (2024), Ghazzah trdd bi-al-kitābah : riwāyah Filasṭīn, Majallat al-Dirāsāt al-Filasṭīnīyah, '138.

14. Rūlān bārth, (1993), dars al-Sīmiyūlūjīyā, tarjamat : 'Abd al-Salām ibn 'Abd al-'Ālī, Dār Tūbqāl, al-Dār al-Bayḍā', al-Maghrib.

Rūlān bārth, (2002), al-kitābah fī darajat al-ṣifr. Markaz al-Inmā' al-ḥadārī, Ḥalab, Sūriyā.

16. 'Alī Zay'ūr, (1991), al-lā-wa'y al-Thaqāfī wa-lughat al-jasad wa-al-Tawāṣul ghayr al-lafẓī fī al-dhāt al-'Arabīyah, Dār al-Talī'ah, Bayrūt, Lubnān.

17. 'Alī 'Abd al-Wāḥid Wāfī, (1983), al-lughah wa-al-mujtama', Sharikat maktabāt 'Ukāz, al-Sa'ūdīyah.

Wā al-Rajūb, min Sayf al-Quds ilā Tūfān al-Aqṣá Kayfa tkhtār al-muqāwamah Asmā' ma'ārikuhā, tamma alāstrdād min al-Jazīrah Nit bi-tārīkh : (9/10/2023) <https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/9/%D9%85%D9%86%D8%B3%D9%8A%D9%81%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AF%D8%B3%D8%A5%D9%84%D9%89%D8%B7%D9%88%D9%81%D8%A7%D9%86%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%82%D8%B5%D9%89%D9%83%D9%8A%D9%81>

Fīlīb blānshy. 2021, Athar al-siyāqāt alsywsywsānyh fī mumārasāt al-ta'addud al-lughawī al-usarī wa-naqalahu, tarjamat : Muṣṭafá 'Alī Sharīf, Majallat Insānīyāt, Markaz al-Baḥth fī al-anthrūbūlūjīyā al-ijtimā'īyah wa-al-Thaqāfah, al-Jazā'ir, '94.

Ylyb syrynj, (1992), al-rumūz fī al-fann al-adyān al-ḥayāh, tarjamat : 'Abd al-Hādī 'Abbās, Dār Dimashq, Sūriyā.

21. Luwīs Jān kālfy, (2008), Ḥarb al-lughāt wa-al-siyāsāt al-lughawīyah, tarjamat : Ḥasan Ḥamzah, Markaz Dirāsāt al-Waḥdah al-'Arabīyah, Bayrūt, Lubnān.

Majma' al-lughah al-'Arabīyah, (dt), al-Mu'jam al-Wasīṭ, al-Maktabah al-Islāmīyah, Miṣr.

23. Muḥammad 'Azzah Darwazah, (1980), al-'Adwān al-Isrā'īl al-qadīm wa-al-'udwān al-Ṣīhyūnī al-ḥadīth 'alā Filasṭīn wa-mā jāwarahā, Dār al-Kalimah, Lubnān.

Muḥammad Watad, Isrā'īl tadfa'u Thaman Sijn mlywny insān fī Ghazzah. tamma alāstrdād min al-Jazīrah Nit bi-tārīkh : (10/10/2023) : <https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/10/%D8%AC%D8%AF%D8%B9%D9%88%D9%86%D9%84%D9%8A%D9%81%D9%8A%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D8%AA%D8%AF%D9%81%D8%B9%D8%AB%D9%85%D9%86%D8%B3%D8%AC%D9%86%D9%85%D9%84%D9%8A%D9%88%D9%86%D9%8A>

Nwrmān fyrklf, (2016), al-lughah wa-al-sulḥah, tarjamat : Muḥammad 'Inānī, al-Markaz al-Qawmī lil-Tarjamah, al-Qāhirah, Miṣr.

26. Ma'rakat Tūfān al-Aqṣá tamma alāstrdād min Mawqī' tilīfzyūn waṭan bi-tārīkh : (27/3 / 2025) : <https://watanegypt.tv/%d9%85%d8%b9%d8%b1%d9%83%d8%a9-%d8%b7%d9%88%d9%81%d8%a7%d9%86-%d8%a7%d9%84%d8%a3%d9%82%d8%b5%d9%89>